من "أوراق" الرئيس (53)

الجليد .. يذوب: بين موسكو والقاهرة!

فجأة أضيئت الغرفة:

لحظة لا أنساها أبداً

هذه صفحات جميلة من "أوراق" الرئيس السادات .. إن له فلسفة فى الحياة فمن المؤكد أنه صاحب تجارب غنية عنيفة، خرج منها المعنى الذى أقنعه بالسير فى الطريق الذى اختاره لنفسه، والذى اختاره له الله.

وقد مرت على الرئيس السادات لحظات كان فى استطاعته أن يبطش وأن ينتقم وأن يتشفى، ولكنه لم يفعل. كم مرة كان متهماً، وكم مرة كان قاضياً يحاكم الذين اتهموه..

وكان ينظر إلى هذا الوضع الجديد الذى جعله أقوى وأرفع، ورأى فى ذلك اعتذار تاريخياً كافياً عن كل الذى أصابه قبل ذلك ..

ثم أنه كان شاباً لم يعرف اليأس، وهذه هديته إلى الشباب الذين فى مثل سنه.

لعلها لحظات تأمل أستعرض فيها أحداثاً من حياتى .. وأتوقف عندها. وأحاول أن استخرج منها المعنى والحكمة وأسوقها لطلائع مصر من الشباب .. فقد كنت شاباً مثلهم. وكنت أتابع ما يجرى حولى باهتمام شديد. ومن غير الاهتمام الشديد، والاشتراك فيما يجرى حولنا، من الصعب أن يكون للإنسان دور فى حياته. فإذا كان له دور وآمن به، فمن الصعب أن يزحزحه أحد عن هذا اليقين. وغلى هذا اليقين النفسى والثقة التامة فى نفسى وفى ربى وحبى لوطنى، أعزو كل ما أصابنى وكل ما أصبت بعد ذلك.

وأنا أولاً وأخيراً فلاح أحتفظ للريف بكل قيمى وكل أمالى، وكل آلامى أيضاً. ويوم دخلت السجن وانسدت كل أبواب الفرج فى وجهى. ويوم فصلت من الجيش ويوم انتزعت من أسرتى. ويوم انحشرت الحياة بين جدران مظلمة باردة. أدركت أنه لم يبق لى إلا قريتى .. إلا الريف. إلا الأرض والزرع وأهلى .. وإلا الحياة البسيطة. كسرة الخبز وشربه الماء – هكذا تعلمت من جدتى أول درس فى الانتماء إلى الأرض.

ولا داعى أننى أملك فى قريتى شيئاً: لا مالاً ولا نسباً ولا حسباً ولا طبقة. لا شئ إلا نفسى. وليس هذا الذى أملكه قليلاً. وقد كشفت لى الأيام أننى أخفى تحت جلدى شعوراً قوياً بأننى "شئ آخر" .. وبأننى مختلف عن الآخرين .. وأن هذا الاختلاف عن الآخرين يضاف إلى حسابى، ولا يخصم من حسابى .. إن فى داخلى "شعوراً بالامتياز" .. لا أعرف معنى هذا

الشعور ولكن هذا الشعور يعرضنى عن الضياع الذى أحسست به فى السجن وفى الشوارع .. إن هذا الشعور هو الذى يوضح لى معالم الطريق، وهو الذى يضئ لى يوم تظلم الدنيا، وقد أظلمت كثيراً .. وهو الذى يتحول إلى غطاء فى الليلة الباردة، وإلى أمان فى الليلة التى أرتعد فيها خوفاً.

وليس هذا الشعور بالامتياز غروراً ولا زهواً ولا رغبة مكبوتة فى التشفى والانتقام .. لاشئ من ذلك، فليس عندى ما أزهو به . فما الذى يمكن أن يزهو به فلاح صغير فقير .. وقد امتلأت حياتى بأحداث كثيرة وأسماء كثيرة .. أسماء للأشخاص وللأماكن. وأنا – ولله الحمد – استمتع بذاكرة تصويرية قوية .. فأنا أستطيع أن أتذكر "هيئة الأشياء" وشكل الأشخاص .. فأتذكر أن فلاناً جاءنى من ثلاثين أو أربعين عاماً، وكان يرتدى قميصاً وبنطلوناً وكان لون القميص أبيض وكان لون البنطلون رمادياً .. وأكثر من ذلك أننى أستطيع أن أتذكر التواريخ بمنتهى الدقة ولابد أن يكون سبب ذلك أن ذاكرتى مغناطيسية. أما سر ذلك فهو أننى شديد الاهتمام. وكل شئ عندى له معنى وله دلالة . وهذا الاهتمام هو المغناطيس الذى يمسك الأشياء والأشخاص والأحداث فى ذاكرتى.

وقد عاونتنى هذه الذاكرة كثيراً وقد لاحظت ذلك على نفسى وأنا فى السجن. فكان خيالى يروح ويجئ بين الطفولة والرجولة، ذهاباً وإياباً .. وكنت فى ساعات فراغى فى داخل السجن أحاول أن أسترجع الكتب التى قرأتها وأرقام التليفونات وأرقام محاضر البوليس وأرقام السيارات وعدد السلالم والأبواب والنوافذ.

وتذكرت فى السجن قصة للكاتب النمساوى استيفان تسفايج اسمها "اللعبة الملكية" .. وفى هذه القصة يروى حكاية سجين كان بطلاً فى الشطرنج. ولم يكن مسموحاً له بأن يقرأ أو يكتب، فراح هذا السجين يستعرض لنفسه كل ما يحفظه من الشعر والنثر. فإذا فرغ من تلاوته لنفسه، عاد فتلاه بالمقلوب .. ثم إنه أمضى الوقت فى وضع ألغاز فى الشطرنج وراح يحلها .. ويجعل عشرات من الناس يلاعبونه فى وقت واحد ثم يتغلب عليهم .. قرأت هذه القصة وقلت لنفسى: خيال كاتب وليس له أساس من الصحة.

حتى دخلت السجن، فوجدت أن الذى قاله صحيح. ورأيتنى أفعل ذلك. بل رأيتنى أحسن حالاً، فقد فكرت وتأملت وقررت وتعلمت. ورسخت فى أعماقى دروس فى غاية العمق.. وسوف أعود إلى ذلك فيما بعد ..

وهذه التأملات تعطينى حريتى فى أن أتجول بعقلى وخيالى فى حياتى كلها طولاً وعرضاً أستخلص المعنى والحكمة. وأدعو غيرى لأن يقرأ ويفكر ويوقن فى البداية والنهاية أنه لا يأس مادام الإنسان حياً. وشئ أهم من ذلك فى نظرى: أن الإنسان قيمة. وأن الله لم يخلق أحداً عبثاً. وأن الإنسان يستطيع أن يجعل لنفسه قيمة، ولحركته هدفاً، ولدوره فى الحياة

وزناً. ولكن المشكلة الحقيقية فى حياة الناس – وهذا ما اهتديت إليه فى السجن أيضاً – أن الناس تأخذهم الحياة .. وتخطفهم لقمة العيش، وليسوا هم الذين يخطفونها .. والسلطة تسلب إرادتهم، ولكن لو اتسع وقت الإنسان، وتوقف لحظة واحدة يستعرض حياته .. وينقى عقلة من شوائبه، ونفسه من شواغلها، ووجدانه من هواجسه .. هنا فقط تتكشف للإنسان حقيقته وهنا فقط من الواجب عليه أن يقرر: كم تساوى هذه الحياة؟ أو كم يساوى هو؟

أما أنا فقد أجبت على هذا السؤال: إن حياتى تساوى الكثير.

ولذلك استهنت بالخطر، واستخففت بالخوف. ووجدت أن العقبات فى حياتى ضرورة حتى لا أنزلق. ولولاها ما ثبتت قدمى على الطريق.

عندما جاء الملك عبد العزيز آل سعود فى أول زيارة لمصر فى يناير سنة 1946 كنت أقف على ناصية الشارع بين عبد الخالق ثروت وإبراهيم باشا .. واحداً مجهولاً مئات الألوف وقفوا يتفرجون على أسد الجزيرة العربية وبطل أبطالها .. وقد تقدمت الملك عبد العزيز الموتوسيكلات التى يركبها رجال الشرطة الملطيون. فلما كان البوليس فى أيدى الإنجليز. وكان الكونستبلات يتلفتون يميناً وشمالاً، حرصاً على سلامة الملك. وكان البوليس يبحث عنى أيضاً، ويخاف منى على الملك وكنت أضحك، بين الناس الذين لا يعرفوننى وأقول مالنا والمالك عبد العزيز .. فليس هذا الذى نريد أن نأخذه منه.

وكان أمين عثمان قد اغتيل قبل ذلك بخمسة أيام وألقى القبض على حسين توفيق وآخرين، وبدأ التحقيق معهم، وبدأ حسين توفيق يعترف بكل كل شئ حتى بمخازن الأسلحة التى أخفيناها فى مغارات المقطم .. إذن سوف يجئ دورى بين لحظة وأخرى ما فى ذلك شك. ولا شئ أبشع فى حياتى كلها من لحظات الانتظار لمصيبة سوف تقع. والمثل الشعبى عندنا يقول: وقوع البلاء البلاء أهون من انتظاره.

وأمضيت أياماً طويلة فى انتظار هذا البلاء – حتى كان ذلك البلاء .. ولابد أن أتوقف، حتى وأنا أسجل هذه السطور، لكى أعود بذاكرتى للهيئة التى تم بها هذا البلاء .. ففى تلك الليلة عدت متأخراً، وسهرت بعض الوقت، وبت إلى فراشى.

لابد أن أتوقف لحظة أخرى أجمع أنفاسى وأضم متابعى على القلم وألاحق هذه الكلمات بعينى. فإننى أكره بياض الورق الذى أمامى. وذلك السبب سوف أضيفه حالاً .. بل هو الشئ الوحيد الذى هز أعماق أعماقى. ولم أنسه لحظة واحدة. وكان من أوائل القرارات التى اتخذتها عندما أصبحت رئيساً للجمهورية بعد ذلك اليوم بأربعة وعشرين عاماً.!

وليس من السهل على الآن أن أتجه مباشرة إلى وصف اللحظة الرهيبة .. فقد كنت أقرأ لطه حسين أوصافاً قريبة للأشياء فكان يقوم: صوت أبيض .. أو صوت نحيل وكنت أندهش كيف يكون الصوت أبيض وكيف يكون محيلاً؟

حتى كانت تلك اللحظة. فقد عرفت "الخوف الأبيض" .. أما أنه خوف. فمن المؤكد أنه كذلك أما أنه أبيض فهذا ما سوف أرويه، وفى ذلك اعتذار من دهشتى لما كان يقوله طه حسين.

** فجأة، فى تلك الليلة، انفتح نور الغرفة وكنت تحت الغطاء نائماً تماماً. الغرفة مظلمة. الظلام والسكون والدفء والأمان هى الجدران الأربعة التى كنت مسترخياً فيها أو تحتها .. وفجأة أضئ كل شئ. وتبدد كل شئ: الدفء والأمان والسكون، حتى الخوف تبدد .. فلم أعد أشعر بالخوف. إنما قد لفنى شعور بالاحتقار الشديد لهذا الذى أمامى: طابور من الرجال يتقدمهم محمد إبراهيم إمام رجل البوليس السياسى ونجم الفزع فى ذلك الوقت. وهو رجل مهذب وفى غاية الأدب ولكن وظيفته مفزعة .. وحاولت أن أجمع قواى وأن أخفى ضيقى وقرفى وفزعى أيضاً، فقلت لمحمد إبراهيم إمام: معك أمر من النيابة؟ فتراجع محمد إبراهيم إمام خطوة إلى الوراء فى أدب. وأشار إلى شخص وراءه: معى النيابة كلها!

وكان وكيل النيابة هو كامل القاويش، وهو أيضاً من وكلاء النيابة اللامعين، ومن رجال الملك، الذى عينه بعد ذلك محافظاً للقاهرة حتى قامت ثورتنا بعد ذلك بست سنوات. وهو منصب لا يرقى إليه إلا من كان رفيع الشأن أو من محاسيب الملك ..

وانتهت اللحظة التى أفزعتنى والتى جعلتنى أقرر بعد ذلك، وإلى الأبد، ألا يقبض على أحد ليلاً أو عند الفجر .. ولا يصاب أحد بما أصبت به فى نفسى وفى أهلى وفى حرمة بيتى ..

واعترف أن هذه الحالة النفسية التى هزت أعماقى ظلت كامنة فى نفسى، وقد نغصت حياتى كلها .. وعندما انفردت بنفسى أفتش فيها عن مصادر متاعبى، وضيقى بكل ش .. لم أهتد إلى شئ .. فكنت أقول لنفسى: إن السجن لا يضايقنى. إنى اخترت العمل السياسى. وهذا السجن ضرورة. فأنا الذى اخترت ومادمت اخترت فمن الواجب أن أتوقع كل شئ.. وأتساءل من جديد: إذن ما الذى يضايقنى؟

وأخيراً اهتديت بعد سنة ونصف سنة، إلى أن هذا "الخوف الأبيض" هو الذى صبغ بالسواد حياتى .. فلما عرفت هذا السبب العميق، خفت قبضة القرف واليأس الذى ساورنى بعض الوقت. وأننى اعترف أيضاً بأننى لم أسمح لليأس أن يستبد بى طويلاً. حدث أن ضقت بالدنيا. ولكن لم تفاجئنى الدنيا بما لم أكن أتوقع .. ثم إنه مهما حدث لى فإننى لن أخشى شيئاً، ففى داخل ذلك الكنز الذى اهتديت إليه: أن هناك شيئاً فى أعماقى أعتز به. وهذا الشئ أو هذا الشعور بالامتياز، هو الذى كان يعوضنى أولاً بأول عن كل خسارة تصيبنى..

وفى سجن الأجانب عرفت معنى الانتظار الأليم .. فقد تركونى بلا محاكمة عشرة أيام. وشكوت إلى النائب العام. وجائنى كامل القاويش يسألنى عن البرقيات التى أرسلتها للنائب العام. فقلت إن أحداً لم يسألنى إن كنت شاركت فى اغتيال أمين عثمان .. واتصلت بشكل ما، بحسين توفيق وآخرين ليعدلوا عن أقوالهم. وعدلوا، ثم عاد حسين توفيق فأكد أقواله ثم عدل وعدلوا.. فأبعدونى من الدور الأول فى سجن الأجانب، إلى الدور الثانى. وطلبت مواجهتهم جميعاً. وواجهتهم وعدلوا عن أقوالهم.

ثم نقلونى إلى سجن قره ميدان .. ولابد أننى فكرت كثيراً فى كامل القاويش هذا. إنه وكيل نيابة يؤدى واجبه. وواجبه أن يلف حبل المشنقة حول عنقى بإحكام شديد. ويكون إعدامى بعد ذلك سببا من أسباب ترقيته إلى وظيفة أعلى. وأنا لو استطعت أن أغتاله لفعلت.

كلانا له هدف .. أنا: هدفه وهو: هدفى .. والنظام الذى يمثله.

فلم يكن كامل القاويش بالذات وإنما النظام الفاسد غير الوطنى الذى يبيع الشعب ويشترى الإنجليز والسلطة، هو هدفى. وليس أمين عثمان هذا إلا عميلاً بريطانيا خائناً. ويوف اغتياله كان يتناول غداءه مع السفير البريطانى – منتهى الرضاء والقوة والسلطة. بل إنهم كانوا يعدونه لأن يكون رئيساً للوزراء .. فهو الرجل الذى أراد أن يزوج مصر إلى بريطانيا "زواجاً كاثوليكياً" – أى زواجاً بلا طلاق!

** وتصادمى مع كامل القاويش هو تصادم إرادتين. إرادته هو وإرادتى أنا أيضاً.

وأشهد أن كامل القاويش كان رجلاً مهذباً. ولكن دوره فى حياتى دور كريه. وكان يؤدى هذا الدور الكريه بمنتهى البراعة!

وهنا أتكر مقالاً لأديب مصرى كبير هو أحمد أمين .. فقد كتب مقالاً عن أن "الحياة رواية" .. وأن كل واحد منا له دور فى هذه الرواية. وان هذا الدور، كالرواية نفسها مؤقت .. ففى هذه الرواية نجد رجلاً يقوم بدور الملك، ولكنه لا ينطق بكلمة. وعلى الرغم من أنه أهم شخص، فإن أحداً لا يهتم به فهو منظر. ثم إنه لا يتكلم .. ومن الممكن أن تجد فى الرواية خادماً، ولكن دوره حيوى وشخصيته جذابه .. فعلى الرغم من أنه أدنى من الملك بكثير، فإن دوره أكثر حيوية وأهمية .. ومن الممكن أن نجد فى هذه الرواية جلاداً سفاحاً كريهاً ..

ومعنى ما كتبه أحمد امين هو: ليس المهم المنصب الذى يشغله الإنسان فى الرواية أو فى الحياة، ولكن المهم، هل يؤديه باتقان؟ لأن من الممكن أن يؤدى إنسان دوراً كريهاً ولكن بصورة رائعة .. ولذلك وجدت العذر لكامل القاويش، أنه يؤدى إلى فشله، نقلنى من سجن الأجانب إلى سجن قره ميدان .. ولا ألومه، فلكل واحد منا دور فى الرواية أو فى الحياة.

وفى المحكمة رفض أنور حبيب، وهو وكيل نيابة آخر أن يؤدى دوره الكريه بإتقان .. وإنما نسى أنه وكيل نيابة وأن من المفروض أن يرفعنى إلى المشنقة .. فهاجم الإنجليز ..

فهم الأعداء الحقيقيون لمصر .. وأن العداء لهم حب لمصر، وأن الثورة عليهم واجب وطنى .. وقال أيامها: عن كل كلب فى مصر ينبح يلعنهم، وكل هواء يريد أن يعصف بهم ..

إن أنور حبيب – بلغة المسرح – قد خرج على النص المكتوب. وأضاف من عنده ما لم يكتبه المؤلف .. أضاف هذا البعد الوطنى، الذى من الصعب أن يتجرد منه أى إنسان!

** وأمام محكمة الثورة وكنت عضو اليمين، وقف أمام كامل القاويش محافظ القاهرة متهماً بالفساد. أو بالاشتراك مع الملك فى إفساد الذمم والحكم. ووقف وكيل النيابة العسكرية يهاجم كامل القاويش، كما هى العادة. ولكنه ارتكب خطأ فقد روى موقف كامل القاويش من قضية أمين عثمان.

وهنا التفت إلى عبد اللطيف بغدادى رئيس المحكمة وقلت له: يا بغدادى. قال لى: نعم .. قلت: أرفع الجلسة لأن وكيل النيابة قد أثار موضوعاً أنا طرف فيه. ولابد أن أوضح لك الموقف. ورفعت الجلسة. وقلت له: واحد من أثنين: إما أن ترفع من محضر المحكمة كل ما ورد عن قضية أمين عثمان، وإما أن أتنحى.

قال لى: وهو كذلك. يرفع كل ما يتعلق بهذه القضية.

وعادت الجلسة. وأعلن البغدادى أن المحكمة قررت استبعاد كل ما يخص قضية مقتل أمين عثمان.

ولم يكد القاويش يسمع قرار المحكمة حتى نهض واقفاً قائلاً: كنت على يقين من أن هنا عدالة وقيماً أخلاقية ..

وحوكم القاويش. وأدين. ولم تنته هذه الجلسة من ذاكرتى.

وإنما استعدتها كثيرا وطويلاً فى طريق عودتى إلى البيت .. تذكرت يوم أضاءت غرفتى لتظلم نفسى، ولأراه أمامى هو ورجال الشرطة .. وأرى كل شئ يتساقط من حولى: الفراش والنوم والأمان .. وكيف إننى تمنيت أن أقتله .. وكيف إنه حاول أن يستدرج حسين توفيق وآخرين إلى الاعتراف بكل شئ. واعترفوا عند منتصف الليل، فلم يكن يحقق معهم إلا عند منتصف الليل، وهو يقدم لهم الكفتة والكباب .. وكيف لم يتركوا شيئاً واحداً سراً .. وكيف إنهم قالوا إن هناك تنظيماً عسكرياً أخر لا يعرفونه .. وإننى همزة الوصل بين التنظيمين المدنى والعسكرى .. وكيف إننى أبرقت مرات للنائب العام أتهمه .. وكيف إنه ضاق بى .. وكيف كنا نتصادم، كل واحد منا يريد أن يحقق انتصاره على جثة الآخر ..

ثم دارت الأيام، وأتت به الثورة متهما أمامى، هو والنظام الذى يدافع عنه ويمثله ..

وأعود إلى نفسى. فما الذى أجده فيها. لم أضمر له أى شئ عندما حكمت المحكمة ببراءتى. لقد انتهى كل شئ. وكان على أن أبحث عن عمل. فأنا رب أسرة. وأنا فقير. وحاولت أن أجد عملاً. ثم اتجهت إلى الأعمال الحرة، ولكن الذى فى أعماقى لم يهدأ. ولم

يسكن. إن شيئاً فى داخلى يقول لى: أنت أقوى من هؤلاء .. أنت أقوى من الحكومة .. أنت أفضل من هؤلاء .. إن لك دوراً آخر .. لا شماتة .. لا مرارة .. لا حقد .. وعندما وقف كامل القاويش أمامى .. أنا فى مقعد القوة، وهو فى هوان الضعف. وجدت أنه: ليس القوى الذى ينتقم من الضعيف .. فلست قوياً لأنه ضعيف، ولكن كنت قوياً يوم كان كامل القاويش قوياً .. إنه لم يستطع أن يقهرنى، ولم يستطع أن يحطمنى. إن الذى فى داخلى أقوى وأرسخ .. وإن هذه النزوات العابرة تفسد طاقتنا، وتبدد قدراتنا، وتضلنا سواء السبيل ..

** أما الذى تعلمته من تجاربى فيما بعد ، أنه ليس أقوى م الإنسان إذا اهتدى. هذه الحقيقة. أى إلى إنه قوى وأنه قوى بصفاته الذاتية، لابأهله ولا بطبقته .. إنه أقوى إذا اختار يكون صادقاً مع نفسه صادقاً مع ربه وسوف ينتهى من ألوف التجارب العميل فى حياته إلى حقيقة أخرى بسيطة قليلة الكلمات ولكنها عميقة المعانى ضد التطبيق: أنه لا يصح إلا الصحيح.

إننى عندما استعرض خط حياتى طالعاً نازلاً، معانى ملتوياً، ظاهراً خافياً فإننى أهز رأسى مستمتعاً بما حدث فلا شئ يبعث على الأسى أو على الأسف، وإنما كل من يمشى نحو قدرى .. و قدرى هو إرادة الله ..